

المحامي ميشال شماس

(كلنا شركاء)

كلام أكثر من رائع، أكثر من معبر صرّح به سماحة المفتي الدكتور أحمد حسون أمام وفد بريطاني من "مؤسسة الوعي" الذي زار سوريا أواخر شهر أيار الماضي "إن الإنسان أولاً والدين ثانياً، بينما مشكلة العالم الآن هي في اعتبار الدين أولاً والإنسان ثانياً" كلنا شركاء 31/5/2009

نعم الإنسان أولاً والدين ثانياً، أقوال مهمة وعظيمة، ليس لأن قائلها شخصاً مسلماً وحسب، بل لأنها صدرت عن إنسان يتمتع بقلب منفتح ورجاحة في العقل، إنسان يؤمن بأخيه الإنسان الآخر المختلف، ولمست أجمال سماحة المفتي العام للجمهورية السورية، بل لأنني والكثير الكثير من السوريين ذرى ونلمس في سماحته تلك الصفات فعلاً، وهو القائل أيضاً: "يجب أن نربي أطفالنا تربية سليمة على الحب لنا على المحقد، وعلى الاعتراف بالشخص الآخر، الذي هو أخوه".

نعم الإنسان أولاً، والدين جاء ثانياً ليكون في خدمة الإنسان، فلولما وجود هذا الإنسان على هذه الأرض، هل كان سيكون دين على هذه الأرض بدون ذلك الإنسان؟ فالدين لم يأت حتى يُكره الإنسان على فعل أمر معين والملتزام به، بل ترك له الحرية في أن يختار " لنا إكراه في الدين قد تبين المرشد من الغي فمن " (سورة البقرة 256). والدين لم يأت ليكفر الإنسان ويحبره على الإيمان بالله، بل ترك له حرية الاختيار بين الكفر والإيمان " فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر " سورة الكهف 29 ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (يونس 99). ولم يأت الدين ليفرض لوناً واحداً على الناس، بل جاء ليقول " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم". (سورة الحجرات 31).

ولم يأت الدين ليحط من قدر الإنسان، بل جاء ليرفع من قدره ومكانته، ولم يأت ليجعل من المرأة عبدة وجارية للرجل، ولم يأت ليشعر اغتصاب الطفلات الصغيرات، أو ليسمح لفئة بسبي نساء فئة أخرى.. بل جاء ليدعو إلى الأخلاق والفضيلة.. جاء ليدعو إلى الرحمة والمحبة والسلام والتقوى بين بني البشر.. ونبذ الفرقة والبغضاء والرديلة... الخ

نقول هذا الكلام بمناسبة الكهّان المجدد أعضاء اللجنة السرية الذين خرجوا علينا مؤخراً من الغرف المظلمة بمشروع قانون للأحوال الشخصية أقل ما يقال فيه أنه مشروع للفتنة بين السوريين.. مشروع يحط من قدر السوريين كبشر، ويفرق بين الرجل والمرأة، ويجعل من المرأة عبدة جارية للرجل، مشروع يجيز اغتصاب الطفلات الصغيرات.. مشروع يهدف في النهاية إلى تغيير كيان الدولة السورية الحديثة والانتقال عليها كلياً، وتحويلها إلى مجرد دويلات للطوائف والمذاهب تصبح فيها النساء سبايا وجواري في عودة مؤكدة لعصور الانحطاط.. عصور الغزوات والجواري والعبيد والسبايا..

لا يشكل هذا المشروع الظلامي خطراً على السوريين بمختلف انتماءاتهم السياسية والدينية وحسب، بقدر ما يشكل خطراً أكبر على الإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى، على اعتبار أن هذا المشروع يشوه صورة الإسلام أكثر فأكثر، على يد الكهان الجدد ورجال التابو القاطنين في الكهوف المظلمة يدعون الإسلام، والإسلام منهم براء، وذلك بما يفوق المحاولات الحثيثة للصهيونية ومن يقف معها لتسويد صورة الإسلام والمسلمين وتشويهها أمام العالم.

هؤلاء الكهان الجدد الذين نصبوا أنفسهم قضاة غير شرعيين على حياتنا ومجتمعنا تارة باسم مثاليات الأخلاق المزيضة وتارة باسم الغلو والتطرف والمتشدد الديني، نخشى إن لم نقف جميعاً في مواجهة مشروعهم الخطير، أن يصبحوا في المستقبل القريب بمثابة أوصياء أيضاً على حياتنا العامة والخاصة ويحددون لنا كيف وماذا نأكل، وكيف نلبس؟ وكيف ننام؟ وكيف نحلق شعرنا ولحاننا؟ وكيف نتكلم؟ وكيف نسمع ونطرب؟ وكيف وماذا نقرأ؟ وكيف نتصرف.. الخ؟

إن سوريا التي دُؤمن بها جميعاً وطنناً نهائياً لنا نحن السوريين.. باستثناء أولئك الكهان الجدد، لا يمكن لها أن تتقدم وتتطور مع هذا المشروع الظلامي ومن أعدده، ففي الوقت الذي تحررت فيه شعوب ومجتمعات كثيرة في هذا العالم من أطواقها، بينما نحن لا نزال نغمس بكل ما يقتل الزمن وبكل ما يقتل الحياة وبكل ما يبعدها عن نسبية الأشياء.. وعن كل ما يشبع الذهن والتفكير بالانغلاق!

إننا في سوريا مدعوون بكل أطيافنا المتنوعة إلى مجابهة هذا المشروع الظلامي بحزم من خلال السعي إلى تفكيك العلاقة البنيوية الفكرية القديمة وذهنيتنا المركبة، والعمل على التأسيس لإصلاح فكري نقدي جديد يستند إلى استحداث مناهج تربوية جديدة تأخذنا باتجاه قضاء العقل والحرية، بما يؤدي في النهاية إلى إقامة الدولة المدنية الحديثة التي تجعل من احترام الإنسان في أعلى أعلى سلم اهتماماتها. أم إذا بقينا صامتين، فإن الظلام سيخيّم على حياتنا شئنا أم أبينا، وسيقف النظام عاجزاً عن صد هذا المشروع الذي سيلفنا جميعاً بظلمة شديدة السواد..